ليلة شهرزاد الأخيرة

-١-

ما زلتْ أَستحثُّ شهرزادْ
لأنْ تَصوغَ لي بِكلِّ ليلةٍ
حِوارْ
في قصّةٍ طويلةٍ
كَساعة انتظارْ
عَنْ عالَمٍ يسكنُهُ المِثالُ،
والروحُ النقيُّ
لا يَنوءُ بالفَساد،
أو يَلوحُ بالدمارْ
عَنْ جنَّة حالمة،
مفروشةٍ باللَّيلَكِ الغضِّ،
وبالنسرينِ،
والأقاحِ،
والبَهارْ

تفتحُ بابَ الحظِّ للآتينَ
يستفُونَ خمرَ الله
ذاتَ العطرِ،
ترعاها هُناكَ الأُمنياتْ
ويقطفونَ بَعدَها
عُشْبَ الحياةْ
عَنْ كلِّ ما يَجولُ
في خَواطرِ النسيم
في المساء،
والندى على مباسمِ السَّحَرْ
والشرقُ حيثُ الشمسُ تَرتديه،
والمطَرْ
عَنْ نخلة تُعانقُ الضياءْ
أعذاقُها ضاحكةٌ
وسَعفُها مَباهجٌ
تَتيهُ في الفضاءْ

-٢-

ما زلتُ أستحثُّ شهرزادْ

بِأنْ تقصَّ لي حكاياتٍ

تُبدِّدُ الأَرَق

عَنْ عالمِ النُّكوصِ والرَّذيلهْ

لأنْ تُقلِّمَ الأظافرَ الطويلهْ

لِما نُسمِّيهِ تُراثاً خالداً،

يَرفل في - التاريخِ -

بالبهاءِ والطفولهْ

وننفضُ الغُبارَ عَنْ

مَخطوطةٍ غنيّةٍ

وخُطبةٍ جريئةٍ صادقة

وعَنْ حُلى قصيدةٍ أصيلهْ

ناسيةً مهازلَ الخُزعبلاتْ

وما يَدورُ في ملاعبِ السُّمَّارِ

والغُواةْ
وأنْ تُتوِّجَ الخُرافاتِ بها
بِحكمةٍ لذيذة
ممزوجةٍ بِمنطقِ الخلاصْ
لكنّها تخافُ مِنْ
شيءٍ اسمُهُ الـ...خ ل ا صْ !

-٣-

تكلَّمتْ بالأمسِ شهرزادْ
لكنَّني في أوَّلِ الكلامْ
غرقتُ - مثلَ الطفلِ -
في بحرِ المنامْ
لأنَّ كلَّ ما تقصُّ شهرزادْ
مُكرَّرٌ مُعادْ
وكلّ ما تقولُ شهرزادُ

- كلَّ ليلة -

مُغلَّفٌ بالسخْفِ والبلادهْ

تحفظُهُ جدَّاتُنا

ترويهِ مُنذُ ألفِ عامْ

يُهدهدُ الوسادهْ

-٤-

أقولُ: يا مؤنستي

يا شهرزادْ

هلْ مِنْ جديدْ؟

هل تجهلينَ الضوءَ

في تاريخنا العتيدْ؟

هَلا رأيتِ الشمسَ تطلعُ الصباحَ

ترتدي أحلى البرودْ

تهزمُ جيشَ الليلِ

تطردُ الظلامْ

وتلعنُ النومَ العميقَ

في غياهبِ الغرورِ

والصراعِ

والصِّدامْ؟!

هلاّ رأيتِ أُمَّةً

دانَ لها أحلى الكلامْ

وأذعنتْ لها القوافي جُملةً

وكلُّ أنواعِ النظامْ؟!

-٥-

يا شهرزادْ

لا تَقصُصي عليَّ أيّامَ القتالِ

والطِّعانْ

مِنْ أجلِ شاةٍ، أو بعيرٍ...

أو حصانْ

أو كلمةٍ قيلتْ جُزافاً

في رِهانْ

أيامَ كانَ القولُ يكفي

كلَّ أهلِ الحيِّ فخراً،

وامتداحاً،

أو هجاءْ

وينظرونَ باتِّكال

نحوَ ما تُهدي السماءْ!

لا تقصُصي عليَّ أيامَ الهناء،

والرَّخاء،

والصَّفاءْ

تَنداحُ في أروقةِ العمائمِ التي

تَميلُ باشتهاءْ

حيثُ الهوى،

لا حيثُ حُكمُ اللَّه،
أو ما قد أَقرَّ الأنبياءْ
الصوتُ والعودُ الشَّجيُّ
والدفوفْ
وراقصاتٌ في فِناءِ القصرِ،
والحجراتِ
زامرونَ يَزمرونَ،
راقصونَ يَرقصونَ، والحواةْ
يُبدِّدونَ الهمَّ - زَعْماً -
في ليالٍ حالماتْ
ومِنْ رِقابِ الخابياتْ
يَنسابُ لحنٌ للخريرِ الحلْوِ
في أيدي السُّقاةْ
يَعبقُ بالخمرِ
والأمرُ بالمعروفِ
مَطويٌّ على جَمْرِ !

-٦-

المخلصونَ مُبتَلونْ

والمُبدعونَ يُقتلونْ

وكلُّ فكرةٍ وليدةٍ

جـديدة

جُنـونْ

وكلُّ عبدٍ آبقٍ

مَصيرُهُ التعذيبُ

والتنكيلُ

والسُّجونْ

إلا الذينَ آمنوا،

وعملوا كما يرى البلاطُ،

والحُجَّابُ،

والمؤيِّدونْ !

-٧-

ما زلتُ أستحثُّ شهرزادْ

بِأنْ تَـقُصَّ لي حكاياها الطوالْ

مُغمسةً بالنَّدِّ والحنَّاءِ،

والبخورْ

والحبِّ والصَّفاءِ والسرورْ

مكتوبةً بالزعفرانِ والضياءْ

لا بالجنونِ والهُراءْ

لا بالسيوفِ والرماحِ والسِّهامْ

لا بالمُزركَشِ المُحلَّى مِنْ كلامْ.

-٨-

أُراقِبُ الصبرَ على جُفونِها

تقولُ لي:

يا سيِّدي المَليكْ

لابُدَّ مِنْ دِماءْ

في أُمَّة

تَبحثُ عَنْ مَجدٍ مُضاعٍ

داااااااااااااائماً

وعَنْ سماءْ

والنَّزْفُ يجري

مِنْ عروقِ الإنسِ

منذُ البدء والتكوينِ،

حُكماً ماضياً

ومِنْ بكاراتِ النساءْ

لابُدَّ مِنْ دماءْ

لابُدَّ مِنْ دماءْ

-٩-

يا شهرزادْ

أَصغي إلى أسئلتي

فاليومَ لا ديكٌ يقولُ لي: كفى
ولا صِياحْ
وكُلُّ ما يُقالُ اليومَ
في قَصري
مُباحْ
ولستُ أولَ الذينَ يَقتُلونَ
الطُّهْرَ والبراءهْ
ويُلبسونَ الحقَّ بالباطلِ،
والدناءهْ
ودائماً
يُكافئونَ الحُسنَ بِالإساءهْ
أَصغي إلى أسئلتي
لابُدَّ مِنْ قولٍ صُراحْ:
فكيفَ عاشَ بيننا أبو رغالْ
وقادَ نحوَ بيتِنا عدوَّنا

مَستَنفَراً

بالفيلِ والسلاحِ والرجالْ

للهَدْمِ والنوالْ؟

وكيفَ عاشَ بيننا ابنُ العلقمي؟

وكيفَ مَهَّدَ الطريقَ للتتارْ؟

فقتَّلوا وأسقطوا

وهدَّموا كلَّ عماراتٍ ودارْ ؟

وأشعلوا حتَّى على الأمواهِ نارْ ؟

-١٠-

وكيفَ عاشَ بيننا

ابنُ الأحمر الصغيرْ

واختَتَمَ الأمجادَ والأعيادَ والحَبورْ

بِدمعةٍ ساقطةٍ

وزفرةٍ لاهبةٍ

وموكبٍ صغيرْ
يقودُهُ جُبناً إلى بئسَ المَصيرْ؟
فضاعَ في أندلُسٍ فردوسُنا
وخابتِ النُّذورْ
وغيرُ هؤلاءِ في زماننا كثيرْ
فكيفَ كيفَ كيفَ عادْ
تاريخُنا المخبوءُ في
عباءة الفسادْ
ليستعيدَ في تَمهُّلٍ خُطاهْ
فاليومَ كالأمسِ البعيدْ ؟!
فكيفَ عادَ كيفَ عادْ؟
يا شهرزادْ

-١١-

تكلَّمتْ بالأمسِ شهرزادْ
لكنَّ كلَّ ما روتْ

مُكرَّرٌ مُعادْ

ولـمْ تَجدْ أسئلتي

منها جَوابْ

فَلَمْ تَعُدْ تُؤنسُني...

والديكُ غابْ!

9-4-1995